سلسلة الأفق الجديد

قصة د. محجوب عمر
رسوم بهجت عثمان

البلح الأحمر



الطبعة الأولى ، ١٩٧٥
الطبعة الثانية ، ١٩٧٧
الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠
الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥

دار الفتى العربي

من قديم الزمان ، كانت فِلَسْطينُ على الدّوام تستقبلُ التجّارَ والزائرين والحُجَّاجَ . فأرضُها الغنيّة بالمحصولات كانت تشدُّ أنظارَ التجارِ ، وطبيعتها الجميلة المتنوعة تَجْذِبُ الزائرين ، وإلى أماكِنها المقدّسةِ يَحُجُّ الناسُ من كلِّ الأديان .

لم تكن وسائلُ المواصلاتِ سهلةً ، لم يكنِ الناسُ قد عرفوا في ذلك الوقتِ الطائراتِ والقاطراتِ والسيارات . وإنما كانوا يسافرون برًّا على الجِمال ، وبحراً بالمراكب ذاتِ الشراع . وقد ساعد موقعُ فلسطين التي تتوسَّطُ القاراتِ الثلاثَ على سهولة السفر إليها والانتقال منها ، فهي مُتَّصلةٌ بآسية وافريقية عن طريق البرّ ، كما يُمثّل البحرُ الأبيضُ المتوسّطُ الذي يُشكّلُ حدودَها الغربيةَ كلَّها طريقاً مفتوحاً بينها وبين أوروبة وأفريقية .

ويُعَدُّ ساحلُ فلسطين من أجملِ السواحلِ الشرقية على البحر الأبيض المتوسط ، فهو يكادُ يكونُ مستقيماً مُنبسطاً ، لذا تعدّدَتِ موانئه الكبيرةُ المشهورةُ ، مثل عكا وحيفا في الشمال ، ويافا في الوسط ، وغزة في الجنوب .

كان من السَّهْلِ على التجار القادمين في مراكبهم من شمال افريقية ، أنْ يتّخذوا من ميناء غزة مكاناً يجدّدون فيه أشرعتهم ، ويتزودون منه بالماء والطعام ، وينقلون إليه تجارتهم ، ويشترون منه بضائعهم .

في ذلك الوقت كانت بجوار ميناء غزة ، مِنْطَقَةٌ سهلية منبسطة تغطّيها أشجارُ النخيلِ العالية ، ويقيم تحتها أهلُ قريةٍ لمْ يَعُدْ أحدٌ يذكر اسمَها القديم ، وإنْ كان اسمُها الحاليّ هو « دير البلح » .

كان البحّارة يتخذون من منظر النخيل علامةً يَرْسَون بجوارها ، وكانت القريةُ الصغيرةُ تبدو أكثرَ العام وكأنّها ترتدي عمامةً خضراءَ كبيرةً ، أما في إبَّانِ نُضْجِ البلح فانّها تبدو وكأنَّها ترتدي قُبَّةً ذهبيةً ، ندر أنْ يكونَ لها مثيلٌ لِكَثْرَةِ ما تحملُ أشجار النخيل من بلحٍ أصفرَ .

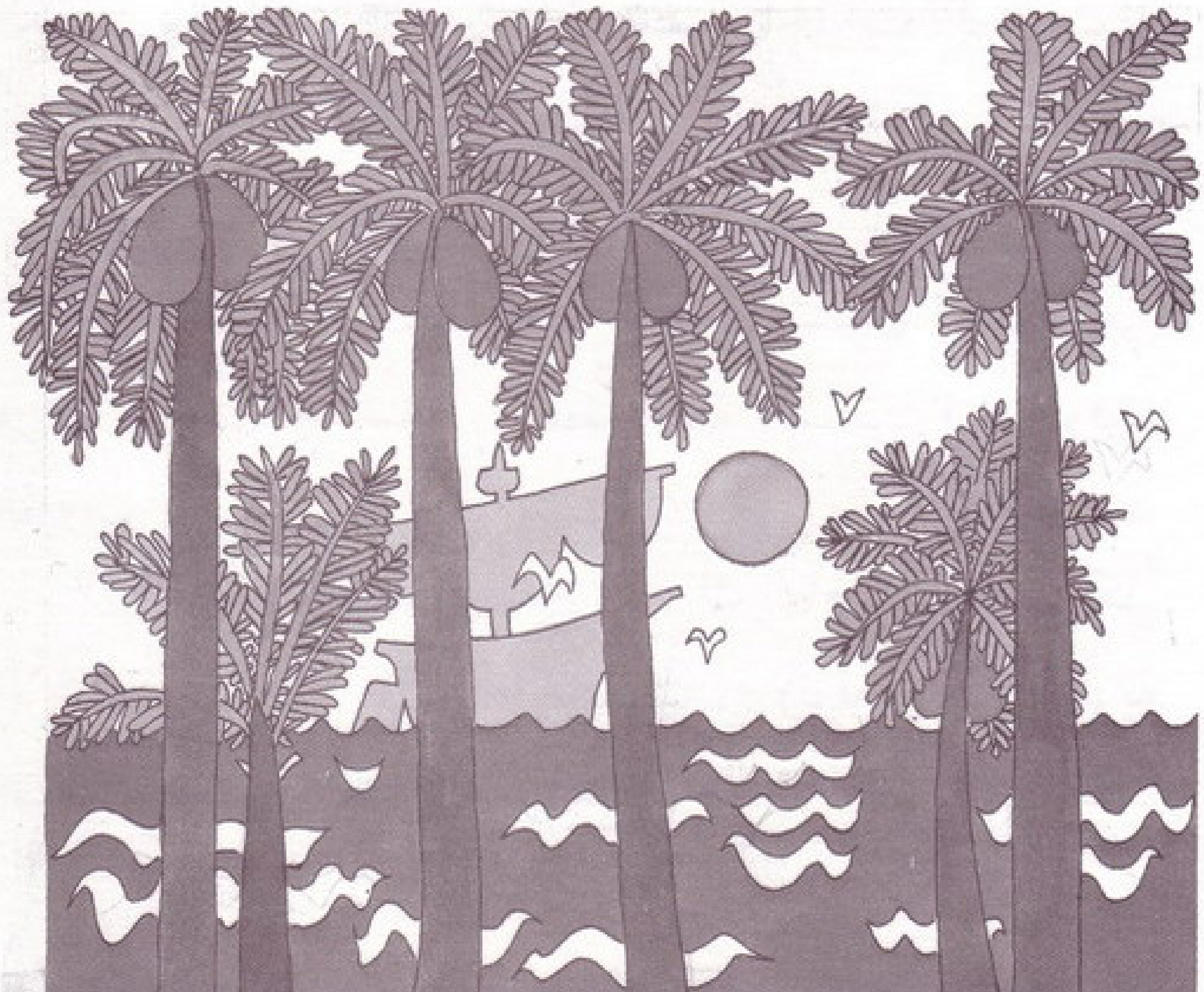
عاش أهلُ القرية في سلام وأمان عشراتِ السنين ، يُقدِّمونَ الخَدَماتِ لسفنِ التجّار طَوالَ العام . أما في موسم البلح ، فانّهم كانوا يُقيمون الحفلاتِ والأعراسَ ، ويَدعون

لها أهلَ القرى المجاورة ، فتتحوّلُ القريةُ الى سوقٍ كبيرةٍ طوالَ النهار، وساحاتٍ للرقص والغناء وإلقاء الشعر في الليل .

واستمرَّ الحالُ على هذا المنوال سنينَ طوالاً . حتى كان عامٌ لم يمضِ كبقية الأعوام ، وما زالت تَحكي قصَّتَهُ الكتبُ والرواياتُ ، حتى إن بعض الجدّاتِ المُسِنَّاتِ ، يُؤكدّنَ أنّه في ذلك العامِ لم يستطع أحدٌ أن ينام .

جاء أوانَ نُضْجِ البلح ، وغيَّرتِ القريةُ عمامَتها الخضراءَ بُقبّةٍ ذهبيةٍ صفراءَ ، تلمعُ إذ تُشْرِقُ الشمس من ورائها ، وتتوهّجُ عندما تسقطُ أشعّةُ الشمس فوقها وقتَ الغروب .

كان النخيلُ مُحَمَّلاً بالبلح في ذلك العامِ ، أكثَر من كلِّ الأعوام . هكذا تؤكّدُ الحكايات . وتَوقَّعَ أهلُ القرية موسماً مليئاً بالبهجة والأفراح .



ذاتَ صباح رأى أهلُ القرية عمارةً كبيرةً من السفن تَلُوحُ في الأفق . أخذ أصحابُ القواربِ الصغيرة يستعدّونَ لاستقبالها ، وسارعَ التُّجارُ إلى متاجرِهم يتوقعون الزبائنَ والزوار. ولكنَّ الشمسَ توسّطَتِ السماءَ ولم تَتَقدمِ المراكبُ نحو القرية .. وتعَجَّبَ أهلُ القرية ، وتوقَّع ذوو الخبرة منهم أنْ تكونَ عمارة المراكبِ لتجّارٍ كبار ، قَدِمُوا من بعيد ، وأنهم توقفوا ليفتحوا صناديقَ بضائعهم قبل أن ترسوَ مراكبهم . وأبدى نفرٌ قليلٌ من أهل القرية ملاحظةً هامة : « المراكبُ الواقفةُ عند الأفقِ لا ترفعُ أعلاماً تدُلُّ على هُوِيّاتها كما هو مُتَبَعٌ في البحار. »

ضاعتْ ملاحظتهم في غَمرةِ أفراح موسِم البلح ، وتوقّعِ وصولِ المراكبِ ببضائعَ ثمينةٍ نادرةٍ وزوارٍ كثيرين . ولكنّ أهلَ القريةِ جميعاً تذكروا تلك الملاحظة قبل أنْ يمضيَ وقتٌ طويلٌ ، وندموا لأنهم لم يهتموا لها

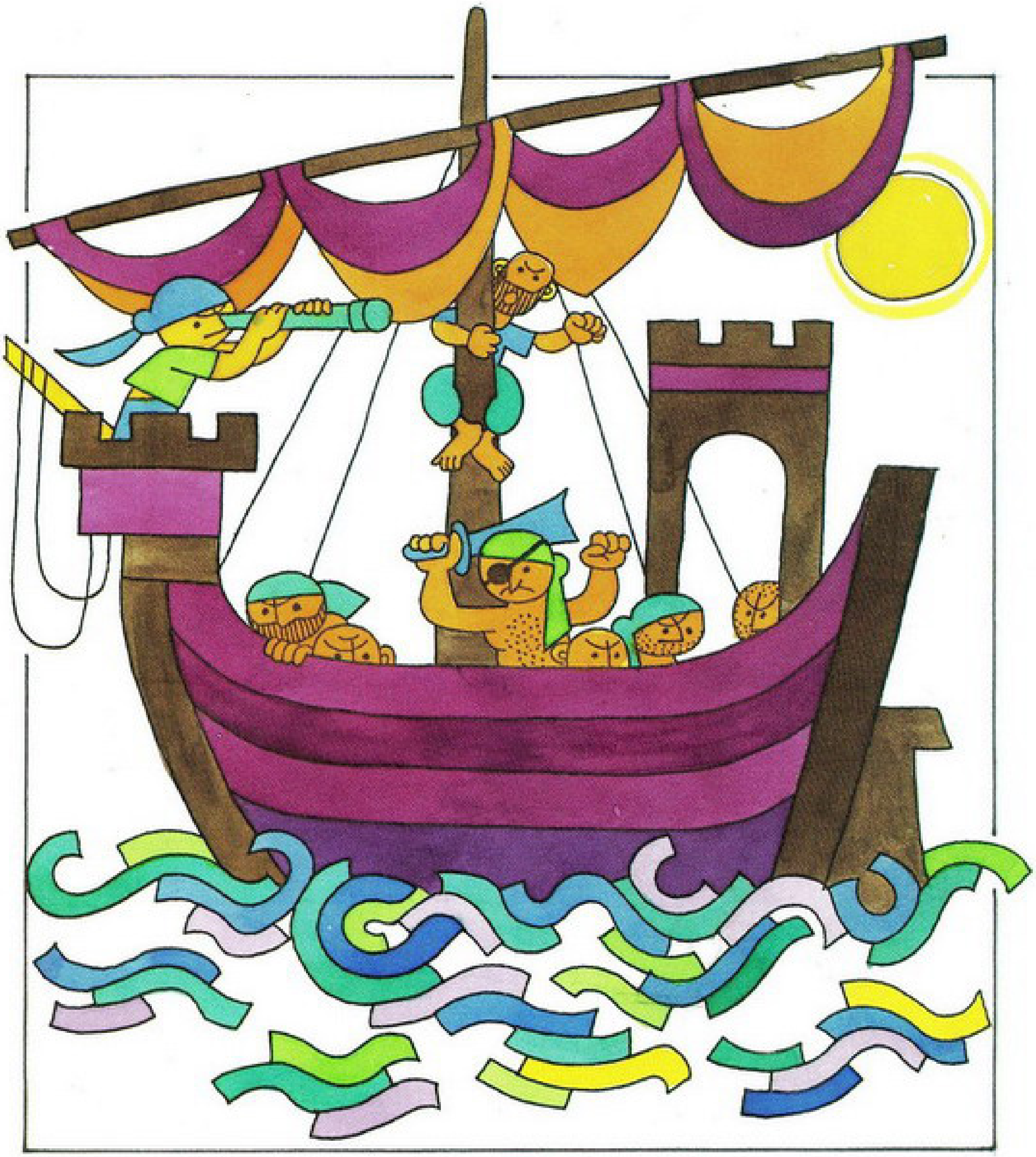
على سطح أكبر المراكبِ جلستْ مجموعةٌ من الرجال حول بحّارٍ ذي عينٍ واحدة ، بدا أنه زعيمهم . قال الرجل ذو العين الواحدة :

« رآها الملّاحُ الواقفُ على دكّة المراقبة وناداني ، فصعدت ورأيتها بعيني هذه ، وها أنتم رأيتموها أيضاً . قُبَّةٌ من ذهب ، نعم ، قُبَّةٌ من ذهب ؛ لا بدَّ أنَّ تحتها كنوزاً تملأُ كلَّ مراكبنا وتزيد ، فما رأيُكُم ؟ هل نترك هذه الثروةَ ونمضي في طريقنا ، أو نستولي عليها ونحملها في مراكبنا ؟ »

فصاح الجالسون جميعاً : « لا بدَّ من الحصولِ عليها ؛ القبة الذهبية لنا ، القبة الذهبية لنا ، القبة لنا والكنوز للرجال ، القبّة لمن يستولي عليها . »

وراح البحارةُ يتصايحون : مظهرُهم ليس كالبحارةِ العاديين ، ملابسُهُم خليطٌ من الألوان ، وجوهُهم متنوعة السِمَاتِ ، حتى حديثُهُم كان مُتعَدِّدَ اللغات .

وكادوا يتشاجرون فيما بينهم فصرخ الرجل ذو العين



الواحدة : « الصَّمْتَ ، لا تتعاركوا قبل الأوان ، سَنُطَبِّقُ تقاليدَ القراصنة كما اعتدنا ، هيّا أعدّوا قارباً ومجموعةً من الرجال ، سنطلبُ من أهل القرية أن يسلموا القبة قبل الغروب وإلا فسيعرفون من هم قراصنةُ البحار. »

كانت هذه المراكب ، هي مراكبَ القراصنة الذين تعوّدُوا سَرِقَةَ مراكبِ التجار في قلب البحار ، ينفردون بمركبٍ مُحَمَّلٍ بالبضائع ، ويذبحون مَنْ فوقهِ منْ بحّارةٍ وتجار ، وينهبون ما يحمل من بضائعَ وأموال ، ثم يُغْرِقُونَ المركبَ حتى لا تتبيّن لهم آثار. وعندما شاهدوا البلحَ الأصفرَ من بعيد ، ولاحظوا حَلَقاتِ التجار تحت ظلالِ النخيل ، كان ما كان من أمر اجتماعهم وقرارِهم بالاستيلاءِ على ما ظنوه قبةً من ذهبٍ ، وما توقّعوه من كنوزٍ تُثيرُ العَجَب .

تحمّسَ القراصنةُ وتدافعوا ، كلٌّ يحاولُ أنْ يكونَ من بين المجموعة الأولى التي ستذهبُ إلى الشاطىء تطلب القبة الذهبية . وتَمَّ إعْدادُ قاربٍ صغيرٍ بسرعة ، وأُنْزِلَ من على سَطْحِ المركب الكبير ، وفيه خمسةٌ من القراصنة

على رأسِهم قرصانٌ عُرِفَتْ عنه القسوة والوحشيَة : صوتهُ أجّشّ ، ووجههُ قبيحٌ ، وفي إحدى يديه سَوْطٌ وفي الأخرى سِكّينٌ كبيرة .

واندفع القراصنةُ يجدّفون نحو الشاطىء في حماسة .

شاهد أهلُ القرية من بعيد إنزالَ القاربِ الصغير وإندفاعَهُ نحوهم ، فازداد تجمّعهم في انتظار وصوله ، بعد أن زادت لهفتهم لمعرفة الأخبار ، وعَظُم قلقهم بعد طولِ الانتظار .

عندما اقترب قاربُ القراصنة من الشاطىء ، وشاهد الرسولُ ورفقاؤه الناسَ متجمّعين في انتظارهم أخرجوا سكاكينهم ، وتحفّزوا لمواجهتهم ظنًّا منهم أنهم تجمّعوا لقتالهِم .

دُهِشَ المنتظرون من مسلك القراصنة ، وتوقّعوا منهم الشرَّ ، فانسحب عددٌ منهم ليبلّغَ سائرَ أهلِ القرية ، وقابلهُم من تبقى على الشاطىء بحذر .

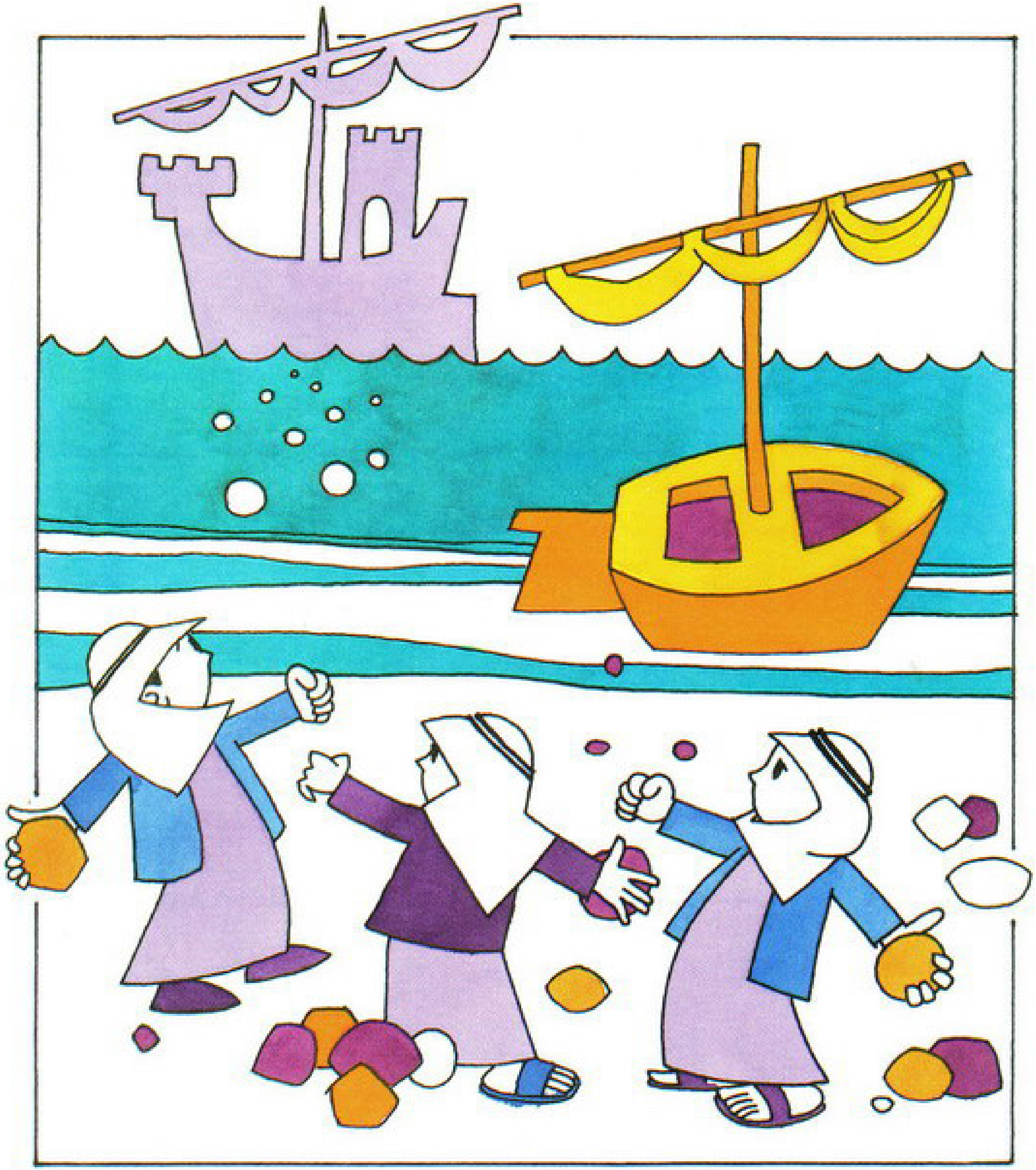
نزل رسولُ القرصانِ إلى البرِّ ، وصاح في أهل القرية :

« سلِّموا القبة الذهبية لزعيم القراصنة وإلا هدمنا قريتكم فوق رؤوسكم . »

تعجَّبَ أهلُ القرية ولم يعرفوا عن أيّ قبة يتحدث . وعندما كَرَّر صياحهُ وهو يُشيرُ نحو البلحِ الأصفرِ فوق رؤوس النخل ، ضحك بعضهم ، وصاح بعضهم استنكاراً ، وقال واحدٌ منهم : « هذا بلحُنا الأصفرُ، ونحن نعيشُ بثمنه بعد بيعه . »

قال رسولُ القرصان : « بلحٌ أو ذهب ، سلِّموه فوراً . »

لَوَّحَ القرصانُ بسكينه مهدِّداً ، وتقدّم خُطوةً إلى الأمام ، ولكنّه فُوجِىءَ بالحجارةِ تنهالُ عليه وعلى رفاقه . كان شبان القرية قد تجمّعوا من بعيدٍ وبدأوا يقذفون القُرصانَ ومَنْ معه بالحجارة . استدارَ القرصانُ مُسْرِعاً واندفع نحو القارب وهو يَسُبُّ ويهدِّدُ : « سنهدِمُ القريةَ فوق رؤوسكم ، ستندمون على فعلتكم . » وانطلق بقاربه نحو السفينة الواقعة في عرض البحر .



تجمَّعَ أهلُ القرية جماعاتٍ تحت أشجارِ النخيل .
كان الحديثُ يدورُ عن إنذار القراصنة وكان بعضُ الناس يحكي ما سمعه من حكاياتٍ وروايات عن النَّهْبِ والسَّلب الذي يقومون به ، وآخرون يتحدثون مسرورين عن فَزَعِ القراصنة وهربهم .

ثم أخذتِ الجماعاتُ تنضمُّ بعضها إلى بعض ، فشكلت حَلْقةً كبيرةً اجتمع فيها الشيوخُ والشبابُ والنساءُ والأطفالُ . وبدأ الحديثُ عمّا حدث ، وحَذَّرَ الشيوخُ من انتقام القراصنة ، واتفق الجميعُ على ضرورة التأهّب لهم وحمايةِ القرية من بطشهم ونهبهم .

تَوزعَ الشبان في مجموعات ، بدأت تُعِدُّ من جريد النخل عِصِيًّا تُقاتِلُ بها ، وتَحْفِرُ الحُفَرَ والخنادقَ لكي تُعوِّقَ تَقدُّمَ القراصنة . وبدأ الصغارُ يُعِدُّون جريداً مُدبَّباً يَغْرِسُونَهُ على الشاطىء تحت سَطْحِ الماء لِيُدمِيَ أقدامَ القراصنة إنْ مَشَوا عليه ، في حينِ أخذَ فريقٌ مِنَ الشيوخ يجمعُ الأشياءَ الثمينةَ ويُخَبِّئُها حتّى لا يَعْثُرَ عليها القراصنةُ

إنْ هم نجحوا في اختراق الحواجزِ الدفاعية .

وأثناءَ ذلك كان شيوخ القرية يطوفون بالجماعات والفِرَق يشجعونها ويحدِّثونها عن التعاون والتضامُن والإقْدام والشجاعةِ وضَرورة الصمود .. وسَرعانَ ما عَلَت الأناشيدُ وعمَّ الجميعَ حماسةٌ جديدة .

قبل شروق الشمس ، أبلغ الحُرّاسُ أهلَ القرية أنَّ سُفُنَ القراصنة بدأتْ تقترب من الشاطىء . نهض الجميعُ من نومهم ، وصحب المسّنون الأطفالَ ، وانطلقوا بهم إلى خارج القرية حيث يوجد بعضُ الآبار ، وحيث وُضِعَت كميات الخبز والطعام ، استعداداً لهذا الصِّدام ، وزحف القادرون رجالاً ونساءً بالعِصِيّ والسكاكين الكبيرةِ نحو الشاطىء واختبأوا في الخنادق ، واستعدَّ الجميع .

عند الشروق بدأت مدافعُ سفنِ القرصان تَقْصِف القريةَ . فَزِعَ الأطفال ، ودَبَّ الخوفُ في بعض القلوب ، إذ لم تكُنْ رأت أو سمعت مثلَ ذلك من قبل . ولكنَّهم مع مرور الوقت اعتادوا صوت القذائف وأخذوا يحاولون



تتبعَ مسارِها وآثارِها . وخرج بعض الناس من مخبأه ، ليطمئنَّ على دارِه أو نخيله ، فجرحَتْهم القذائفُ ، فزَحَفتْ إليهم على الفور فِرَقةٌ من الشابات يَحْمِلنَ لُفَافات الإسعاف والنقّالات ، ونقلن الجرحى إلى أماكنَ أمينةٍ أُعِدَّتْ في الليلة السابقة .

كان زعيمُ القراصنة قد قرّر أن يُواليَ القصفَ يوماً كاملاً ، حتى يُهدِّمُ جزءاً من القرية ، ويُخيفَ من يبقَى حيًّا ، فَيَسْهُلَ عليه الهجومُ والانقضاضُ . وهكذا ظلّت مدافعهُ تَقْصِفُ إلى ما قبلِ غروبِ الشمس بقليل ؛ عندئذ أمر بعضَ رجاله بالتقدُّمِ نحوِ الشاطىء في قواربَ صغيرةٍ لاقتحامِ القرية . فاذَا تمَّ لهم ذلك ، أطلقوا الإشاراتِ للباقين . ولكن أحداً من هؤلاء لم يعُدْ حيًّا ، فقد استقبلهُم شبّان القرية بالعصيّ والسَكاكين على نحوٍ مُباغتٍ ، ومَنْ قَفَزَ منهُم في الماء انغرسَتْ في قدميه عَصيّ الجريد المُدَبَّب فلم يستطعْ أنْ يتحرّكَ خُطوة واحدة ، وغرق مكانه . ومرَّ اليومُ الأولُ وقد أخفق القراصنةُ في اقتحام القرية .

انقضى الليل وأهلُ القرية يستعدّون في حماسةٍ ونشاط : شارك الجميعُ في الحَفْرِ والتَحْصِين وجَمْعِ الموجودِ من الطعام ، وسلم إلى لَجْنَةٍ مُختصّة تشرف على التّدبير والتّوزيع ، لتضمَنَ توفّره إذا استمرَّ القتال . وأُعيد تنظيم القادرين من نساء ورجال ، وتوزعوا مجموعاتٍ في الخنادق على الشاطىء وحول القرية من كلِّ اتجاه . وكُلِّفَ الصغار بمُهمّة نَقْل الأوامر والأخبار ، وتوزيع الماء والطعام على المواقع أثناءَ النهار ، ومُراقبةِ أطرافِ القرية حتى لا يُفاجأَ أهلُها بخديعةٍ او التفاف .

عند فجرِ اليوم التالي ، بدأ القراصنةُ في قَصْفِ القرية ؛ تكرر ما حدث في اليوم السابق ، إلا أنّه عند الغروبِ لمْ يأت القراصنة في قواربِهم خوفاً من هزيمة أخرى وتَحَسُّباً لكلِّ احتمال .

كان زعيمُ القراصنة قد قرّر أنْ يستمر قصفُ القرية حتى يستسلمَ أهلها . وتكرر القصفُ في اليوم الثالث واليوم الرابع . واشتعلتِ الحرائقُ هنا وهناك ، وتهدَّمت البيوت ،

وسقط على الأرضِ نخيلٌ كثير. واستشهد عددٌ من الرجال والنساء والأطفال، عدا مَنْ جُرح وأسعف ونُقِلَ في الليل إلى قُرىً مجاورة. وبدأ البعضُ يتساءل: «إلى متى نستطيعُ الصمود؟»

في المساء اجتمع أهلُ القرية؛ كانت علاماتُ الإرهاق باديةً على الوجوه، والقلقُ على المصيرِ، سؤالٌ يلحُّ على الكبيرِ والصغير.

بدأ شيخُ القرية الاجتماعَ بذكرِ الشُهداء والترحُّمِ عليهم، ثم سأل الحاضرين عن رأيهم فيما يجب عمله؟

تعددتِ الآراءُ، واقترح البعض أن يفاوضوا القراصنة، ولكنَّ اقتراحَهُمْ رُفِضَ على الفور، فالتفاوضُ مع القراصنة معناهُ التسليمُ بجزءٍ مما يطلبُونه. واقترحَ البعضُ أن يَهْجُرَ القريةَ إلى القرى المجاورة، ولكنّ اقتراحهم رُفِضَ على الفور أيضاً، فالرحيلُ معناهُ تسليمُ القريةِ إلى القراصنة.

ثم ساد رأيُ القائلين بوجوب الصمود والمقاومة، وبدأ سكّانُ القريةِ يبحثون في الوسائل والسُّبُلِ التي تهزمُ

القراصنةَ وتردُّ هجماتِهم .

عندئذ قال شابٌ من شبّان القرية : « لقد لاحظتُ أنَّ إصاباتِ القذائفِ لا تكونُ دقيقةً إلا بعد الظهر ، وهذا معناه أنَّ القراصنة لا يستطيعونَ التصويبَ بدقةٍ ما دامتِ الشمسُ تُعْمِي عيونهم منذ الشروق حتى الظّهيرة ، فلو أنّنا استطعنا أن نجعلهم عاجزين عن الرؤية لطاشتْ كلُّ قذائفهم . »

فسأله واحد من الجالسين : « وكيف السبيلُ إلى ذلك ؟ »

قال الشاب : « الأَمْرُ بسيطٌ . لنأتِ بكلِّ المرايا الموجودةِ لدينا ، وليصعدْ كلٌّ منّا إلى أعلى نخلةٍ ويعكِس الشمسَ بعد الظهر إلى عيون القراصنة . لو أننا جَنَّدنَا عددا كبيرا من الشبان لهذه المُهمَّةِ ، واستخدمَنا كلَّ ما لدينا مِنْ مرايا ، لاستطعنا أن نُعْمي عيونهم فعلاً . » تحمَّسَ الحاضرون للفكرة ، وانقضى الاجتماع بعد أن حدَّدَ شيخُ القرية أسماءَ الشبان الذين تَطّوعُوا للصعود فوق النخل ، وانطلقت النِّسْوَةُ يُحْضِرْنَ المرايا من بيوتهن ، واشتدَّ حماسُ الجميعِ

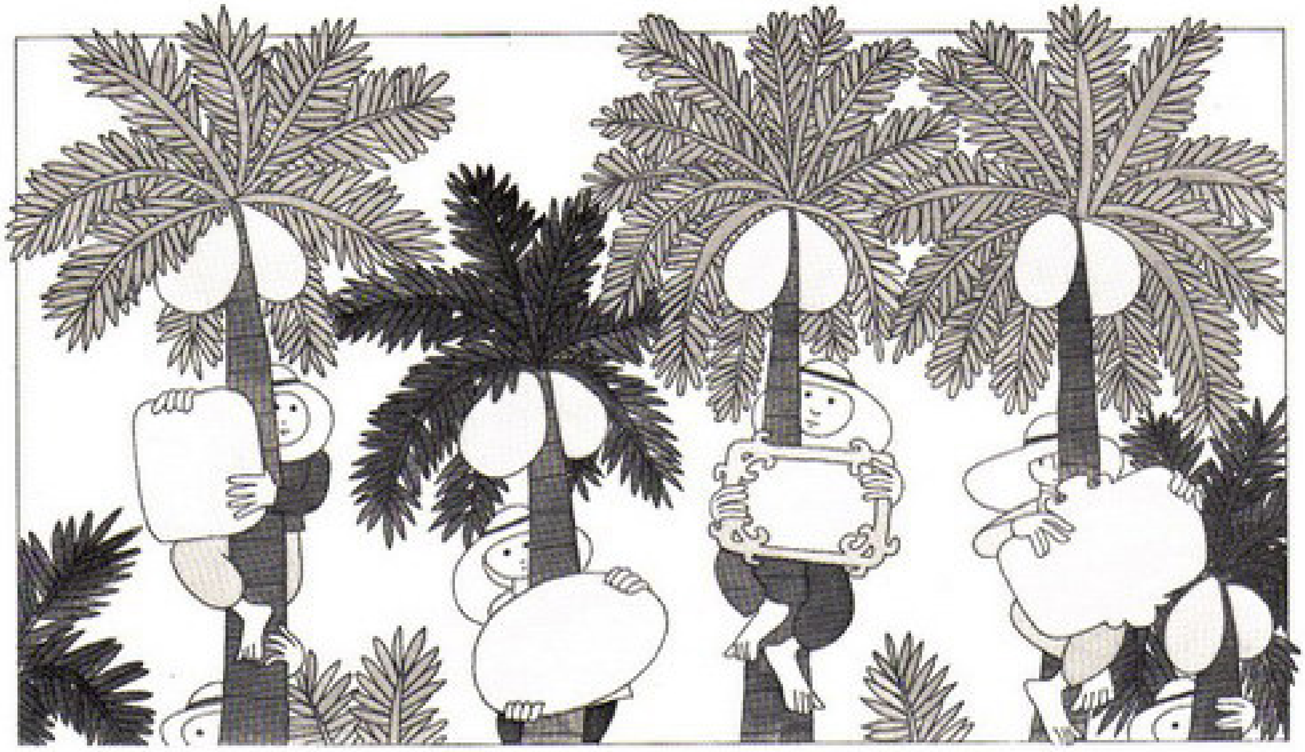
عندما شاهدوا عجوزاً كانوا يُلقّبونها « جَدَّة القرية » وهي تأتي بمرآةٍ كبيرةٍ من بيتِها ، قالتْ إنَهَا تحتفظُ بها منذ أكثرَ من خمسين عاماً يوم كانت عروساً .

استُؤنِفَ القصفُ عند شروق شمس اليوم الخامس . كان القراصنةُ قد أدركوا هم أيضاً أنَّ قذائفَهمْ في الصباح لا تُصيبُ أهدافَها بدقَّة ، ولذا اقتصدوا في ذخائرهم ، مركِّزينَ قصفَهُمْ بعد الظهر ، أي عندما تُصْبِحُ الشمسُ خلفَ ظهورهم . ولكنهم في هذا اليوم فوجئوا مفاجأة أخرى .

قبل أن ينتصفَ النهار بقليلٍ ، تسلَّقَ النخيلَ عددٌ من شبان القريةِ يحملُ كلّ منهم مرآةً في يده ، وأخرى على ظهره ، حتى إذا انكسرتْ واحدةٌ حلّت الثانية محلَّها .

كانت الخطّةُ أن يبدأوا في عَكْس أشعّة الشمس عندما يُعطيهم شيخُ القرية إشارةً لذلك ، حتى يعملَ الجميعُ في وقت واحد فيفاجئون القراصنة .

أما على مراكب القراصنة فقد كانوا يستعدّون لفترةِ



ما بعد الظهر. وكرّر زعيمهم ذو العينِ الواحدةِ أوامرَه بأن يدكّوا البيوتَ بيتاً بيتاً . وأن يبتعدوا عن القبة الذهبية حتى لا تصيبها القذائف . ووقف بنفسه على مدفع مركبه ، وأمر الباقين على كافة المراكب أنْ ينتظروا أولَ طلقة يطلقها كي يبدأوا هم الإطلاقَ جميعاً في الوقت نفسه .

وانتظر زعيمُ القراصنة حتى استدار ظل الصّاري فأصبح ناحيةَ الشرقِ مُشِيراً الى تَحوُّل الشمسِ عن منتصف السماءِ في اتجاهها نحو الغرب .

فالتفت ناحيةَ الشاطىء لِيُطْلِقَ مدفعَهُ على هدفٍ

يختارُهُ ، فإذا به لا يتمكّنُ من رؤيَةِ شيءٍ لا هو ولا معاونوه .

كانت هناك شمس ثانية فوق النخيل بدت كأنها مئات من الشموسِ الصغيرة فوق الشجر ، تُلْقي بأشعَّتها الساطعةِ في عيونهم فتعميها .

فقد زعيمُ القراصنة صوابَه ، وظهر عليه الغضبُ الشديدُ ، وأمر رجالَهُ بأن يتوقّفوا عن القَصْفِ حتى يتبيَّنَ سرَّ هذه الشمسِ الثانية . جمع معاونيه الذين أبلغوه أنَّ الخوف واليأس بدءا يدبّان في قلوبِ القراصنة فوق كلّ المراكب ، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه . واتفقوا على أنْ يذهب واحد من القراصنة الأشدّاء سابحاً الى الشاطىء شمال القرية ، ومن هناك يتسلّلُ إلى حيث يتجسس على أحاديثِ سكانها ، ليعرفَ سرَّ ما حدث ويعودَ مرة أخرى .

اختار زعيمُ القراصنة قرصاناً عُرِفَ بمهارته في السباحة ، ووعده بمكافأةٍ كبيرةٍ إن هو عاد بالسرّ قبل الفجر .

نجح القرصان الجاسوس في الوصول إلى أَطرافِ

القرية ، وساعده أنَّ الحرّاسَ كانوا قد تركوا مواقعهم ، وانضمّوا إلى أهلِ القرية الذين تجمعوا في ساحتِها فرحين مسرورين بنجاحِ خطتّهم ، يهنىء بعضهم بعضاً ، ويتفاءلون بقرب هزيمةِ القراصنة . وعبثاً حاول شيخُ القرية أنْ ينبههم إلى ضرورة الحذر واليقظة ، وإلى خَطَرِ الحديثِ بصوتٍ عالٍ عما فعلوه . غرّهم انتصارُ اليوم فتهاونوا في الاستعداد للغد ..

وسمع القرصانُ كلَّ ما قالوه ، وعرف سرَّ الخطة وانطلق سابحاً مرةً أخرى نحو سفينة زعيم القراصنة فكافأه هذا بسكّين حادةٍ واعداً إيّاه بنصيبٍ أكبرَ من القبة الذهبية .

فكر زعيمُ القراصنة في خطّةٍ يواجهُ بها خطة أهل القرية ، ثم جمع رجاله ووزّع عليهم بنادقَ خاصةً بعيدةَ المدى ، وقال لهم : « غداً عندما يبدأ هؤلاء الملاعينُ في تصويب مراياهم ضدَّنا نبدأُ في قَصْفِهِم ؛ صَوِّبُوا بدقةٍ نحو الشموسِ الصغيرةِ التي تَلْمَعُ فوق النخيل» ، فخلفَ

كلِّ شمسٍ صغيرة شاب من شبان هذه القريةِ ، فإن قَضَيْنا عليهم سهل علينا بعد ذلك الحصولُ على القبة الذهبية . »

بدأ اليومُ التالي بالقصفِ المُعتاد ، وعند الظُّهر صعد شبان القرية الى أعلى النخيل ، وبدأوا يَعْكِسُونَ الشمسَ في عيونِ القراصنة . عندئذٍ بدأ القنّاصةُ من فوقِ المراكب يطلقون النارَ عليهم . أُصيبَ بعضُ الشبان فأسرع الموجودون أسفلَ النخيل بالصعود وحلّوا محلَّ المصابين من إخوانهم . كانْ كلّما أُصِيبَ شابٌّ حلَّ محلَّه شابٌّ آخرُ على الفور . وزادتِ الخسائرُ بين الشبان ، ولكنّهم استمروا في الصّعود . وتجمّع أهلُ القريةِ جماعاتٍ ينقلون الجَرْحَى ويُنْشِدون أناشيدَ الصّمود ، وبدأ الفتيانُ يتسلّقونَ النخيلَ ، ليحُلَّ كلُّ واحدٍ منهم مكانَ شاب مُصاب أو شهيدٍ . وتجوّلَ الشيوخ يشدّونَ العزائمَ ويواسونْ المصابين ، حتَى حلَّ الغروب وتوقَّفَ القصف . ونزل عن النخيل مَنْ بقي حيًّا ، وأُنزل من كان مصاباً ، أما الذين استشهدوا فقد دُفِنُوا تحت

النخيلِ فور إنزالِهِم .

خلالَ ساعات المعركة سالتْ دماءُ المصابين والشُّهداء فوقَ البلحِ الأصفرِ فلوّنته ، وَصَبَغَتْ رؤوسَ النخيلِ باللونِ الأحمرِ .

كانتْ خسائرُ القرية في تلك المعركةِ أكبرَ الخسائرِ ، وفي المساءِ اجتمع أهلُها يتساءلونَ : « إلى متى يُمكِنُنا أَنْ نَصْمُدَ وأنْ نستمرَّ ؟ » كان القلقُ يعمُّ الجميعَ ، فالقراصنةُ مُصمّمونَ على إخضاع القرية وأهلها ، والإصاباتُ والخسائرُ زادت كثيراً ، فما العملُ ؟ .

قال شاب : « لا بُدَّ أن نَنْتَقِلَ إلى الهجوم . إنَّ القراصنة لن يَتْرُكُوا القريةَ ما لمْ تُدَمَّرْ سُفُنُهمْ . »

وقال آخر : « إنَّ القراصنةَ لن يستطيعوا البقاءَ طويلاً في عُرْضِ البحر ، وسيحاولون الهجوم علينا ، لذا يجب أن نبدأَ بالهجوم . »

فقال شيخ القرية : نعم ، نعم ، هذا صحيحٌ ، ولكنْ كيف يُمْكِنُ أنْ نهاجمَ والسفنُ في عُرْضِ البحرِ ؟ »

قالَ الشابُّ الأول : « القذائفُ اقتلعت لنا بعضَ أشجارِ النخيل ، فلنجمعها بالحبال ونصنع منها طَوَّافَةً وننطلقْ بها . وهناك نَحْرِقُ السُفُنَ . »

ودار حديثٌ هامسٌ بين الحاضرين ، واتفقوا على خطّة الهجوم ، وانقضى الاجتماعُ ، وذهب كلّ واحدٍ ليقومَ بدوره المرسوم .

قبل الفجر بقليل كانت مجموعة من الشبان على الشاطىء تستعدُّ لركوب طوّافَة صُنِعَتْ من جذوعِ أشجارِ النخيل ، وفوقها بعضُ أدوات الحَفْرِ وَخِرَقٌ مُبَلَّلَةٌ بالزيت ، وبعضُ السكاكين الكبيرة . وهناك ودّعَهُم شيخُ القرية وأوصاهم بالحَذَر وعدم التعجُّل ، وبالدقّةِ في تنفيذِ الخطّة ، ودعا لهم بالسلامةِ .

وصَلَت الطوافة إلى جوار سُفُنِ القراصنة بهدوء ، وهناك احتمى الشبان في ظلّ إحدى السفن ، وبقوا صامتين ساكنين دون أية حركة ، في انتظارِ أنْ يبدأ القراصنةُ القصفَ فيبدأون هم في حَفْرِ ثُقوبٍ في جُدران المراكب



فلا يَسْمَعُ أصواتَ الحَفْرِ أحدٌ .

ما إنْ بدأ القصفُ حتى توزّعَ الشبان سباحةً فوق الطّوافَةِ واتجه إلى كلِّ مركبٍ اثنان منهم : أحدَهُم يحملُ أداةَ الحَفْرِ ، والآخرُ يحملُ خِرْقَةً مُبلّلَةً بالزيت ومِقداحاً لإشعالها ، وأسرعوا جميعا في العمل ، يعملون وقتَ القصفِ ويتوقفون إنْ توقّفَ ، حتى لا يشعرَ بهم القراصنة .

لم يكنِ العملَ سهلاً ، فَقَصْفُ المدافع يُحرِّكُ السفن والماءَ من حولها . وصَعُبَ على الشبان إحداثُ الثقوبِ بسرعةٍ ، ولكنّهم نجحوا أخيراً ، فأشعلوا الخِرَقَ المُبَلَّلَةَ بالزيت ، وأَلقَوْها في داخل السّفُنِ ، وانطلقوا سابحين مرةً أخرى إلى الشاطىء ، حيث كان في انتظارهم الفِتْيَةُ الصغارُ ، وقد رفَعوا عدداً من العِصِيّ المُدّببة المغروسة في الشاطىء تحتَ الماء فاتحينَ لهمُ ثَغْرةً تسمحُ بوصولهم دون أن تؤذيَ تلك العصيّ أقدامهم .

فوجىء القراصنةُ فوق سطوح سفنهم بالنيران تشتعلُ في باطنها ، فسادهم الاضطراب والارتباك ، ولم يعودوا

قادرين على الاستمرار في قَصْفِ القرية ، وانفجرت إحدى السفن عندما وصلتِ النيرانُ إلى مخزنِ الذّخائر فيها .

وصاح زعيمهم ذو العين الواحدة آمراً السفنَ بالابتعادِ إلى عرضِ البحر. وهناك صعد فوق الصاري ، وتطلّع نحو القرية بمنظاره وصاح متعجِّباً : « هذه القريةُ لا يمكنُ أنْ تُهْزَمَ ، كانت لهم في البداية قبةٌ ذهبيةٌ ، ثم جعلوا مكانها شمساً تُعمي الأبصارَ ، ثم حوّلوها إلى عمامة حمراءَ ضخمة ، واستطاعوا الوصولَ إلينا وإشعالَ النار في سُفُنِنَا ؛ هؤلاء لا يمكن أنْ يُهْزَموا . »

كان زعيمُ القراصنة قد شاهد البلح وقد صَبَغَتْهُ الدماءُ فأصبح لونه أحمرَ ، فظنَّهُ عمامةً حمراء ضخمةً فوق القرية ، تماماً كما ظنَّ في البداية أنَّ البلحَ الأصفرَ قبةٌ ذهبيةٌ .

ومنذ ذلك الوقت وأشجارُ النخيل تُثْمِرُ بلحاً أحمَر مع البلح الأصفر ، تكريماً للشهداء الذين قَدَّمُوا حياتهم دفاعاً عن القرية وأهلها ونخيلها .

ومنذ ذلك التاريخِ أصبح اسمُ القرية « دير البلح » .



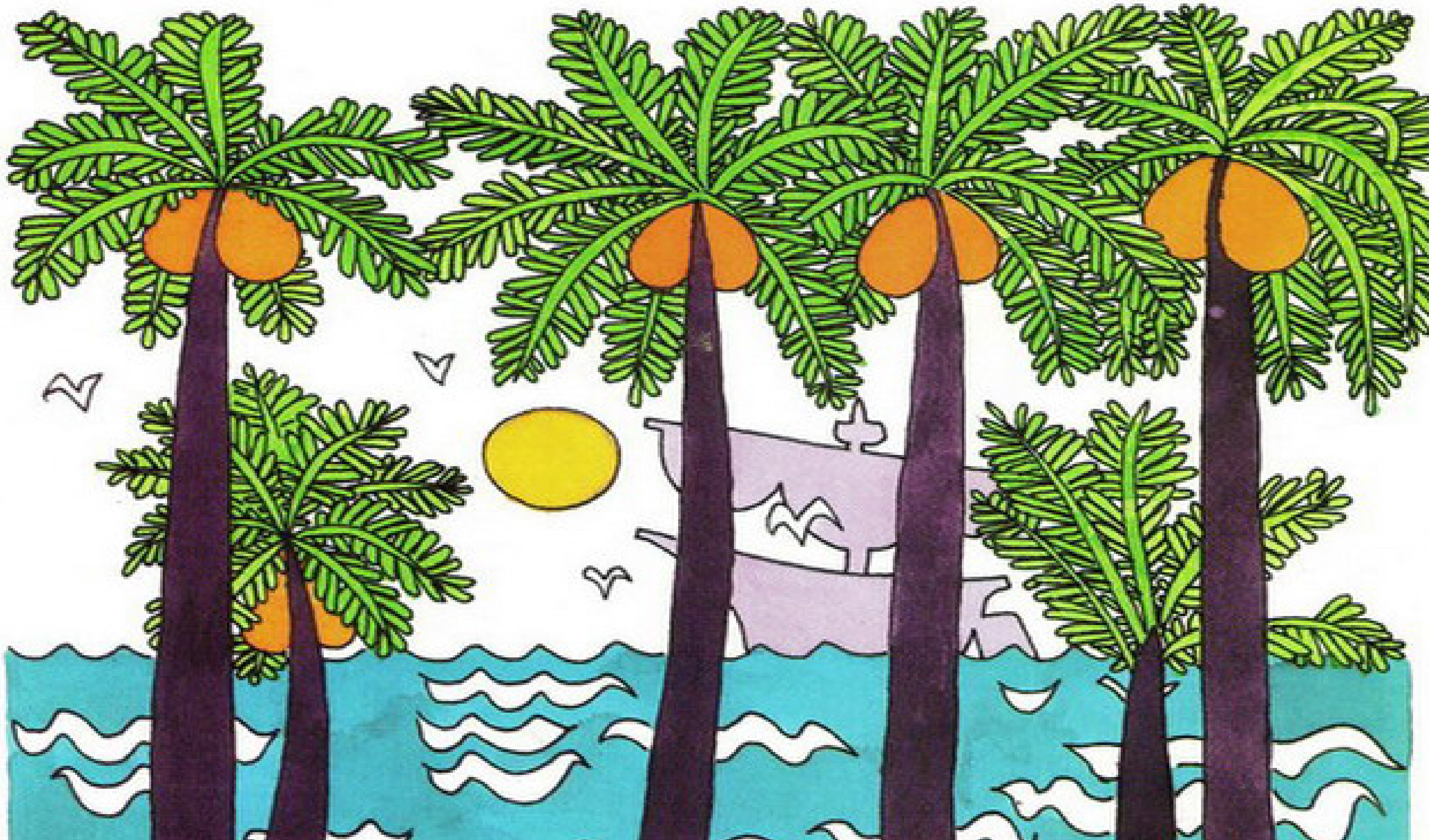
سلسلة الأفق الجديد

تضمُّ مجموعة من أجمل القصص الخيالية المُثيرة . بعد قراءة قصص هذه السلسلة نجد أننا قد أحببنا أبطالها رغم معرفتنا أنهم ليسوا أبطالاً من عالم الواقع .

صدر من السلسلة

- ★ **القنديل الصغير** قصة كتبها ورسمها غسان كنفاني
- ★ **حارسة النبع** قصة زين العابدين الحسيني
- ★ **السمكة الصغيرة السوداء** قصة الكاتب الايراني صمد بهرنجي
- ★ **البلح الاحمر** قصة الدكتور محجوب عمر
- ★ **نسيم الجناح** قصة كتبها بول أيلوار
- ★ **أوبرا القمر** للشاعر الفرنسي جاك بريفير
- ★ **ليمونة الحاياة** قصة كتبها فؤاد حداد

دار الفتى العربي للنشر والتوزيع
كورنيش المزرعة، بناية الترك، ص.ب ١٤/٥٢٣٦ بيروت ـ لبنان.



طباعة: مؤسسة دار الريحاني، هاتف ٨١٤٩٨٨ ص.ب ١٣/٥٣٧٨، بيروت.